



سمو المعنى في سمو الذات أو أشعة من حياة الحسين

تأليف الأستاذ عبد الله الملايلي
للاستاذ علي الطنطاوي

— — — — —

تفضل الأستاذ عبد الله الملايلي فأهدى إلى كتابه الذي سماه (سمو المعنى في سمو الذات)، وجعله الحلقة الأولى من سيرة الحسين بن علي بن أبي طالب، فطالمت أكثره والقلم في يدي فكننت أكتب بعض التعليقات على ما أنكر منه فاجتمع لي في نقده مسائل (مهمة جداً) أحببت أن أنشرها، وما أشك في أن الأستاذ يتقبلها بقبول حسن، فيقرأها إذا رآها حقاً، وبناقشني فيها إذا رآها غير ذلك. ولست أعرض في هذا النقد للخلاف بين السنة والشيعة، أو تأثير غبار النزاع على القضايا المذهبية، وإنما أنقده من الناحية التاريخية العلمية، للوصول إلى الحقيقة التي أنشأ الأستاذ الملايلي كتابه للبحث عنها

والملاحظة العامة على هذا الكتاب هو أنه يدرس خلافاً بين فئتين، فيسبغ على إحدهما ثوب التقديس والإجلال، ويكتب عنها بروح إعجاب واحترام، وينزل بالثانية إلى حيث يتمكن من النزول بها، ويلصق بها التهم والسيوب، ويتكلم عنها بلغة لا تخلو أحياناً من كلمات وعبارات لا يليق بالمؤرخ المنصف المذهب أن يقولها. وقد تكون هذه التهم صادرة عن (الخيال...) وحده، ليس لها سند من رواية أو نص؛ وقد يعترف بذلك المؤلف، ولكنه لا يمتنع عن ذكرها. كقولوه وهو يتكلم عن الأمويين

صفحة (٣٣): «الحزب الأموي كاد للنبي ولدعوته، وعرفنا كيف أسلم زعيم الأموية أبو سفيان، وعرفنا كيف لم يبق للأمويين أي مقام اعتباري في محيط الإسلام الذي كان ظهوره فوزاً وغلبة للهاشمين... ووجدوا في ولاية يزيد بن أبي سفيان وولاية معاوية من بعده فرصة سانحة للقيام بعمل خطير، ففكروا في اغتيال عمر بن الخطاب (١) وكذلك اغتالوه بيد فارسي... إلى أن قال: «ولما أقول في جملة ما أود إثباته إن قتل عمر لم يكن وليد فكرة فارسية مدبرة، وإنما كان وليد فكرة موضوعية خالصة وأموية بحتة. هذا رأي وعسي أن أجد (انته) في منشور الروايات والأخبار ما يوضح الواقع»

فإذا كان المؤلف يستند في تاريخ الماضي إلى (رأيه...) ويضع النتيجة قبل أن يجد المقدمات، أي أنه إذا كان يرغب التاريخ ارتجالاً فليس عجيباً أن يكون في الكتاب قول عن المسعودي في الطعن على بني أمية والمسعودي لا ينقل عنه (وحده) في هذا الباب كما هو معروف، وأن يكون فيه قول عن مثل الأب لامنس عدو العرب والإسلام، التمسبب الذي يضعفه كثير من المستشرقين ولا يرون الأخذ عنه

والمؤلف يقول في صفحة (١٣): «والحق أنا لا نزال من فهم عصر الحسين على غموض وخفاء، وذلك لأن الأقلام التي تناولته منذ أول عهد العرب بكتابة التاريخ لم تكن بريئة على إطلاق القول، بل دارت على خدمة أغراض شتى بين النزعة المذهبية، والزنى من السلطة الغالبة». ثم يأتي في صفحة (٤٩) فيقول في عنوان مكتوب بحروف كبيرة: أسباب فشل سياسة علي عليه السلام ونجاح السياسة المعادية^(١) ويصف الأمويين بأنهم أداة

(١) كأن السياسة المادية سياسة رومي أو فارسي مجوسي

البيزنطى يحتاج إلى درس شامل لكلا النظامين ، وأدلة ثابتة ، ولا يمكن شرحه فيما دون الرسالة الكبيرة أو الكتاب المستقل . أما مجرد الادعاء وإرسال النظريات فلا يقدم فى التاريخ ولا يؤخر ولا يكون له قيمة علمية

٣ - ذكر فى صفحة (١٧) أن من الأسباب « التى يظن أنها مهدت إلى عمل الاضطراب (كذا) وإثارة الخواطر وقدمت مادة الانقلاب الكبير ، الاختلاف على البيعة يوم السقيفة وامتناع فاطمة منها وآل هاشم عموماً » وذكر أن هذا الخلاف « كان له صدى عكسى - كذا - ولد عند البعدين شيئاً من الشهور بالاستهانة وجرأهم على الانتفاض والخروج والتمرد » . وجعل المؤلف هذا الخلاف من الأسباب المؤدية إلى ارتداد العرب ، مع أن انتخاب الرئيس فى أى بلد من البلدان الجمهورية يتقدمه فى عصرنا نزاع وخلاف لا يقاس به اختلاف أهل السقيفة ، ولا يؤدى إلى خروج ولا تمرد . ثم إن خلافة أبى بكر كانت إجماعية فلم يشذ عن يمينه إلا رجل واحد هو سعد بن عبادة ، وتأخر على ومن معه لأسباب أخرى ذكروا أن منها اشتغاله بكتابة المصحف . وعلى كل فقد بايع أخيراً . أما ارتداد من ارتد فقد كانت له أسباب مبررة (غير ما ذكر)

٤ - ويذكر فى صفحة (٢٣) أن من هذه الأسباب : « عدم عناية حكومة الخلفاء ببيت الدعوة وغرس التربية الدينية » وهذا كلام لا يقبله أحد ، لأن المؤلف لم يقيم عليه الدليل العلمى أولاً ، ولأن هذا الادعاء طمئة موجهة إلى صميم التاريخ الإسلامى . وإذا كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى لم يمتوا ببيت الدعوة وغرس التربية الدينية ، فمن ذا الذى عنى بها ؟ ومن ذا الذى بث الدعوة إلى الدين حتى شملت مشارق الأرض وغاربها ؟ ومن غرس التربية الدينية حتى فى صدور الفرس والروم وأهل خراسان وأرمينية حتى صاروا مسلمين يستقلون بدرس الدين ويتبعون هديه ، وحتى نشأ فيهم علماء فحول وأئمة هادون ؟

أردت هذه الحقائق كلها بتسمة أسطر جاء بها المؤلف ، خالية من أى دليل : من نص ثابت أو استنتاج منطقي ؟

٥ - وذكر المؤلف أن « مسحة الحكم إلى عصر على لم تزل

إفساد وفى طبيعتهم بث الحياة الجاهلية صفحة (٢٨) . ويقول فى صفحة (٤٢) : « على بن أبى طالب مظهر فذ من مظاهر التكامل الإنسانى ، ونموذج بارع من نماذج التفوق البشرى ، ومثال لبلوغ الاستعداد الكامن فى التسم الخ » فى صفحة كاملة كذا خطايبات ومبالغات على هذا النمط . وحينما يتكلم عن الخلفاء الأربعة يتكلم عنهم ص (١٢) بما نصه : « الخليفة الأول والثانى والثالث ثم على عليه السلام »

ولنأت الآن إلى عرض نماذج من المسائل التى أنكرتها فى الكتاب بقصد التمثيل لا الاستقصاء

١ - يقرر فى صفحة (١٠) أن نظام الحكم فى عهد الأمويين « لم يكن إلا ما نسميه فى لغة المصر بالأحكام العرفية ، هذا النظام الذى يهدر الدماء ، ويرفع التعارف على المنطق القانونى (كذا) ويهدد كل امرئ فى وجوده . وفى هذا المصر إذا كان يتخذ فى ظروف استثنائية وحالات خاصة فقد كان فى انهدام الأموى هو النظام السائد » وكان هذا فى رأيه (وضعاً احتكم فى كل التاريخ الأموى وصيغه بصيغة وييلة ، فتتافى مع المبادئ الدينية والمدنية) وكل ما أورد المؤلف من الأدلة على هذه الدعوى التى لا يدعيها أشد الغلاة من أعداء التاريخ الإسلامى وخصومه ، كل أدلته أنه أشار إلى (الرسوم الملصقة أو المذكرة الإيضاحية (كذا) الصادرة فى بيان الأسباب التى بررت قتل أبى جعفر الشيعانى) وذكر أنها فى الجزء الأول ص (٢٣٨) من معجم الأدباء - وهكذا ثبتت هذه التهمة الخطيرة ، وسودت صفحة من أنصع صفحات التاريخ العربى ، وانتهى الأمر بسلام ، وقيل الحمد لله رب العالمين ورحمة الله على العدل أيام بنى أمية ، ورحمة الله على التحقيق التاريخى فى أيامنا هذه

٢ - يقرر فى ص (١٢) أن معاوية اقتبس النظام البيزنطى « وانفصل به إلى أبعد حد . فانتقل طفرة واحدة إلى نظام يبعد كثيراً عن النظام النبوى من كل الأطراف » إلى أن قال : « إلى حد تتمكن معه من القول بأنها حالت دون أزكى ثمار الإسلام ، وحالت دون حكومة القرآن ، ومسخت تعاليم النبى ، وشوهت تقاليد حكومة الخلفاء » . والذى نفهمه أن موضوع اقتباس الأمويين النظام

فيها يهذى المنطق ويتنقى حيث تنتهى به ، وما عدا هذا وجاوزه لم يكن تاريخاً ولا شبه تاريخ

٨ - ومن أعجب ما يأتى به هذا المؤلف الذى يرتجل التاريخ وينشئ من خياله حوادث لم تكن - أنه يجعل فى صفحة (٦٦) نشأة يزيد بن معاوية ، نساءً مسيحية ! ويستدل على ذلك بأن أخواله بنى كلب كانوا يدينون قبل الإسلام بالمسيحية ! وإلى أنه يعرف طرفاً من الهندسة ! ! وإلى أن يزيد أمر الأخطل (لمسألة خاصة معروفة) بهجاء الأنصار . ويقول فى صفحة (٦٨) بمد سرد هذه الأدلة المضحكة : « إذن كان يقيناً أو شبه اليقين أن تربية يزيد لم تكن إسلامية خالصة ؛ أو بعبارة أخرى كانت مسيحية خالصة ، فلم يبق ما يستغرب معه أن يكون مستهتراً مستخفاً بما عليه الجماعة الإسلامية لا يحسب لتقاليدها وعاداتها أى حساب ولا يقيم له وزناً ، بل الذى يستغرب أن يكون على غير ذلك »

هذا قليل جداً من كثير جداً ، مما فى هذا الكتاب العجيب من المسائل .

أما لغة الكتاب فلا تخلو مواضع منها كثيرة من ضعف فى التأليف ، أو استعمال للكلمة على غير وجهها أو فى غير معناها . قال المؤلف فى الصفحة (٩) : « ثم هذه الجوانب التى تلمح إليها ليس من السهل استيعابها على وجه الدقة إلا إذا انتشرنا على مسائل الخ... » فافتتح الكلام بقوله : « ثم هذه الجوانب » وكان الأولى أن يقال : « ثم إن هذه الجوانب » ، واستعمل كلمة « انتشرنا على » بمعنى « اطلعنا على » وليس لها وجه . وقوله فى ص (١١) : « وكذلك يسدو الدرس متصعباً غامضاً حتى نقف من تاريخ الحسين موقف الحيرة اللطافة لشدة خفاء الجانب التعليلى (٢) فى كل مراحل حياته التى كانت أشبه بالبعثرات » . وقليل من يفهم ما المراد بالجانب التعليلى ، أو يقر كلمة « البعثرات » فى هذا الموضع ، ولذلك أمثال فى الكتاب

هذا وأنا أشكر المؤلف الفاضل هديته ، وأرجو أن يحمل تقدي على المحمل السهل ، وأن يثق بأنى لولا احتراى لياه ، ما نقدته ولا عرضت لكتابه

على الخطأ

خاضعة للنظامات القبلية ، وأن حكومة « تقوم على نظم البداوة لا يرجى لها بقاء ، لأنه ليس بين عناصرها وحدة حقيقية » والرد على هذا الكلام من وجهين : أولها أن الإسلام قد محا عصبية القبيلة ودعا إلى الأخوة الإسلامية ، وفهم ذلك الصحابة ونشأ عنه وحدة عمرية استطاعت أن تعمل أكبر عمل فى سبيل الدعوة إلى الله . وثانيهما أن هذه النزعة القبلية إذا كانت قد ظهرت بعض الظهور ، فإنما ظهرت أيام على . واستثناء المؤلف عصر على من الحكم الذى أطلقه وعممه قلب الحقيقة وتبديل للواقع

٦ - ويقول فى صفحة (٢٦) : « إن للأنصار حقاً أكيداً وشبهة قوية فى السلطة على أنهم فهموا فى آخر الأمر أنهم أنصار الدين وأنصار محمد وأنصار بيته (كذا) ولذا ظل ميلهم إلى الداعى القائم من آل البيت » ... وقرر فى حاشية الصفحة أن الأنصار : « يتبرون وصول بنى أمية إلى الحكم إنما هو انتصار لأعدائهم القدامى من مشركى مكة » .

ودليل هذا كله أن « فلو تن » ذكره فى كتاب « السيادة العربية » فانظر هذا التحقيق !

٧ - ويقرر فى صفحة (٢٧) أن الأمرين أرادوا « أن يخضدوا من شوكة المدينة ويقضوا على الطبقة الدينية المحترمة » وأنهم « استأجروا طوائف من الشعراء والمغنيين والمختئين من بينهم عمر بن أبى ربيعة لأجل أن يمسخوا عاصمتى الدين : مكة والمدينة بمسحة لا تليق بهما ... » إلى أن قال : « ويتأذى بنا الظن إلى أن الروائيين فكروا بصرف الناس عن المقدسات الإسلامية التى تنزل من الإسلام منزلة الشجرة ، بإنشاء المسجد الأموى بأهته العظيمة بدمشق . ولقد ظن بعض المستشرقين « كالأب لامنس اليسوعى » بأن هذه نية عبد الملك بن مروان بأناته فى تشييد المسجد الأقصى . ونحن وإن كنا نظن ونوافق من يظن نرسى ما نقول فى تحفظ مطلق حتى تتناسب عليه الشواهد والروايات » ما دام هذا كله ظناً من المؤلف ، وما دام قد أقر بذلك فنحن نعان أن الظن لا يبنى من الحق شيئاً ، وأن التاريخ لا يكتب على هذا الشكل الذى عمد إليه المؤلف ، وإنما يكتب التاريخ رجل خالى النفس من الهوى لا يبغي ولا يحب ؛ وإنما يدرس القدمات ويسير